شؤون فلسطينية

الدكتور انيس صايغ

شهدت الاوساط الفلسطينية (وخاصة في لبنان) في شهر يونيو عددا من المسائل التي أثارت نقاشات حادة ولم ينقسم الفرقاء حولها حسب تنظيماتهم ولا خلافاتهم الايديولوجية وانما كانت المواقف تنتج في معظم الاحيان عن قناعات ذاتية خاصة وتفسيرات اجتهادية. ومشاركة من « شؤون فلسطينية » لمعالجة هذه الامـــور واعطاء رأي هادىء وهادف فيها ، طلبت من غسان كنفاني أن يكتب لها تعليقه حولها ، وكمحاولة منه للتهرب من تلبية الطلب ــ وكان ، كعادته ، غـــارقا في ألف مسألة : اعلامية وتنظيمية وتحريرية وسياسية وتخطيطية ــ تساءل : ولم أنا بالذات ، وبين الكتاب الملتزمين العشرات من هم أكثر امتلاكا لاوقاتهم ؟ وكان الجواب : لانك ، مع هذا ، أنت الاكثر جرأة على معالجة هذه المسائل دون مراعاة الحساسيات التي لا معنى لها ودون الموقف من ادانة فعل مقبول عموما أو تبرير فعل مرفوض عموما . وكتب غسان المقال . وسلمه في وقت مبكر . وأرسل الى المطبعة وأجريت عليه المراجعات التصحيحية الطباعية الخمس التي تقوم بها المجلة عادة . وفي صباح السبت ، الثامن من يوليو ، هيئت البروفه النهائية لترسل له ليتولى بنفسه المراجعة الاخيرة . وكان غسان ، في تلك اللحظة بالذات ، يتوج نضاله المشرف ويصل بعطاءاته لفلسطين ، وما أكثرها ، الى قمة التضحية .

أن يستشهد غسان كنفاني أمر طبيعي . فلقد استشهد في كل لحظة من سيرة نضاله من أجل البلد الذي أحب والذي خلد في أروع ما يكون التخليد (في الكتابة السياسية والادب والفن ، في السلوك ، في الالتزام) . وسيرة نضاله هي ، في الواقع ، حياته العملية كلها. ولقد طلب الاستشهاد بنفسه . ولقد عمل له . ولقد سعى اليه . وذلك لانه آمن به . آمن بأن العمل لفلسطين لا حدود له . وان المشاركة في حرب التحرير لا تكون من بعيد . وان الكتابة الثورية (وهي مهنته وهوايته وقناعته ولذته ومعاناته في آن واحد) لا معنى ولا أثر لها اذا لم تتجسد بالممارسة والسلوك اليومي . وان الثورة لا تتحمل المواقف الوسط ، ولا المهادنة ، ولا التأجيل ، ولا الاستراحـــة ، وان الكلمة الثائرة لا تعرف المواربة ، ولا الدبلوماسية ، ولا التلفيق ، ولا الاصطناع .

كانت شؤون فلسطينية تعتز بغسان كنفاني رفيقا وزميلا : يكتب لها ، يشترك بندواتها ، يشير عليها ، يعلق على محتوياتها ــ وما أكثر ما كان يغضب لبعض محتوياتها ، وينتقد بقسوة (وبصدق وباخلاص) ، وما أكثر ما كان يثور على محرريها ، وعلى بعضهم بوجه خاص ، « سأغتالكم . سأكسر أقلامكم . سأخلص فلسطين من تحاملكم » . ثم يهدأ . ثم يكتب لنا ثانية . ويشترك معنا في تحرير العدد المقبل . ويقدم النصح من جديد . وبين الثورة الغاضبة والمشاركة جلسة بسيطة نكتشف خلالها ، هو ونحن ، أن لا خلاف بيننا ، وانه جزء لا يتجزأ من شؤون فلسطينية ، شاء أم أبى وشئنا أم أبينا .

وكسائر اجهزة الثورة الفلسطينية ، تخسر « شؤون فلسطينية » في غياب غسان كنفاني واحدا من أخلص وأقدر وأجرأ رجالاتها . ولكنها ، وبشكل خاص ، تخسر أيضا صوتا مشجعا ونبرة محذرة وقلما جبارا وقلبا واسعا ، وتخسر أخا .

حق الثورة علينا ألا نبكي غسان . وحق غسان علينا أن نغبطه شرف الاستشهاد . انما الحقيقة القاسية والبشعة تبقى : لقد خسرنا هذا الرجل ، باخلاصه وقدرته وجرأته ، بصوته المشجع ونبرته المحذرة وقلمه الجبار وقلبه الواسع . وخسرنا الاخ . ولسوف نفتقده كثيرا . ولسوف نفتقده طويلا .